

المفارقة في النظم القرآني، قراءة في منجز الدكتور محمد العبد.

The Paradox in Qur'anic Systems, a reading of Dr. Muhammad al-Abd's work.

د. زهرة بن يمينت* - Zohra Benyamina

جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم (الجزائر)

zohra.benyamina@univ-mosta.dz

تاريخ النشر: 2026/06/07

تاريخ القبول: 2026/05/01

تاريخ الاستلام: 2026/03/09

ملخص:

إذا كانت إشكالية المفارقة موجودة في شتى مجالات حياة الإنسان، وفي مختلف أقاليمه الوجودية، مما يدعو إلى حلحلة مختلف الإشكاليات والمشكلات عبر الاكتشاف والابتكار وتحقيق نقلة نوعية في مساره الحضاري؛ فإن المفارقة في اللغة والأدب لها تماثلاتها التي استحوذت على اهتمام الباحثين ومنها اللغة العربية؛ ولما كان القرآن الكريم كتاب الله المعجز الأنموذج المحتذى في البلاغة والفصاحة، فقد انبرى الباحثون لسبر أغوار تعبيراته والوقوف على جماليات مفرداته وتراكيبه، ومن ثم كان وقوفهم على مبحث المفارقة ودورها في بنية الدلالة القرآنية.

يأمل هذا البحث تقديم قراءة مؤلف تناول هذه الإشكالية وهو كتاب: " المفارقة القرآنية - دراسة في بنية الدلالة" للدكتور محمد العبد، حيث يقف على أهمية الكتاب في الحقل اللساني لما حواه من قضايا نظرية تعرف بمفهوم المفارقة وعلاقتها بالمعنى والسياق، وبسطه القول في أنواع المفارقة في التنزيل الحكيم وأثرها في الإبداع الدلالي الذي إنماز به القرآن الكريم من غيره. وعلى المنهج الوصفي تسير المعالجة في هذا البحث؛ آملين أن يمثل إضافة يثري بها الإشكالات التي تطل هذا الموضوع.

الكلمات المفتاحية:

المفارقة، القرآن الكريم، الدلالة القرآنية، اللغة.

Abstract:

If the problem of paradox exists in various areas of human life and in different regions of existence, calling for the resolution of various issues and problems through discovery, innovation, and a qualitative shift in the course of civilization, then paradox in language and literature has its own manifestations that have captured the attention of researchers, including the Arabic language. Since the Holy Quran is the miraculous book of God and the model of eloquence and rhetoric, researchers have sought to explore its expressions and examine the

aesthetics of its vocabulary and syntax, which led them to study paradox and its role in the structure of Quranic meaning.

This research aims to present a reading of a book that addresses this issue, namely: "Quranic Paradox - A Study in Semantic Structure" by Dr. Muhammad Al-Abd, highlighting the importance of the book in the field of linguistics due to its theoretical issues that define the concept of paradox and its relationship to meaning and context, and explains the types of paradox in the Wise Revelation and their impact on the semantic creativity that distinguishes the Holy Qur'an from others. This research follows a descriptive approach, hoping that it will enrich the issues surrounding this topic.

Keywords: Paradox, Holy Quran, Quranic meaning, language.

. مقدمة:

لا ريب أنَّ القرآن الكريم قد أحدث - مذ أضاءت حروفه وكلماته فضاء هذا الكون - ثورة شاملة في كافة جوانب الحياة في جزيرة العرب، ففضلاً عما جاء به من تصحيح لمفاهيم مغلوطة عن الحياة والأحياء، فقد صاغ وأرسى مفاهيم جديدة للحياة بكل تنوعاتها لا تتعارض مع الجبلة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها، وقصَّ عن السابقين قصصاً كانت مجهولة، أو ناقصة، أو مشوهة... تلك الأمم الغابرة الضاربة في أعماق التاريخ، وعن الآخرة وما فيها من مصائر تنتظر الخلق جميعاً؛ مما جعل للحياة معنىً وهدفاً، أصبح معها للإنسان دورٌ وقيمة جعلاً منه سيداً بلا منازع... ولا يزال ذلكم القرآن الكريم كتاب الله المعجز - وسيظل - المعين الذي لا ينضب نظراً وتأملًا، والمادة الخصبة الثرية بحثاً ودرساً، يُقبل عليه الباحثون من مشارب مختلفة؛ سبراً لمكنونات أسرارهِ، وكشفاً لمقاصد تجلياتهِ، واهتداءً لطرقهِ العجيبة في التعبير والبيان. ولا زالت آيُّ كتاب ربنا العزيز الرحيم تنزل برحمته على عباده المؤمنين؛ لتكشف لهم بعضاً من آفاق هذا النص الشريف، وتفيض ببعض من أسرار هذا التنزيل البديع، وما إن تُلوح بعض هذه الأسرار، وتنبج هذه الأنوار، إلا وتنقطع النفس عن حظوظها لتعيش رحلة مائعة مع تذوق بعض ما تفيض به هذه الأسرار العجيبة من إبداعات فريدة في التعبير، وطرق عجيبة في التصوير، تغاير ما أُلِفُّهُ المبدعون والمتلقون على السواء.

وقد كان للدرس اللغوي على مدى تاريخ العلم العربي الحظُّ الأوفر في هذا المجال، والشرف الأعظم في الميدان؛ فنشأت علومُ العربية كلها من أجل خدمة هذا الكتاب المعجز، وعلى غرارهِ كان الدرس اللغوي المعاصر، لذلك ينبري هدف ورقة البحث هذه ليكشف تجليات المفارقة وتطبيقاتها على القرآن الكريم، فما منهجه في ذلك؟ وماهي نتائج بحثه في المفارقة القرآنية؟ وإلى أي مدى مثّل بحثه هذا إضافة إلى الدرس الأسلوبي والبلاغي في القرآن الكريم؟ ومحاولة لفكّ هذه الإشكالات، سنروم تطبيق توليفة من مناهج البحث مثل المنهج الأسلوبي،

والتأويلي مُستندين على الوصف، والتحليل، والاستنباط، إضافة إلى خطة بحث ارتكزت على محاور تعكس علاقتها بالبحث، وانقسمت إلى قسم نظريّ، وآخر تطبيقيّ.

2. المفارقة في النظم القرآني:

كان للمفارقة حضورها الجليّ في اللغة والأدب، الذي استحوذ على اهتمام الباحثين، ومنها اللغة العربية؛ ولما كان القرآن الكريم كتاب الله المعجز النموذج المحتذى في البلاغة والفصاحة وقد اتخذ العربية وعاءً له؛ فقد انبرى الباحثون لسبر أغوار تعبيراته والوقوف على جماليات مفرداته وتراكيبه، ومن ثم كان وقوفهم على مبحث المفارقة لتثويرها والوقوف على دورها وبيان قيمتها في بنية الدلالة القرآنية.

من هؤلاء الدكتور "محمد العبد" الذي خصص مؤلفاً لهذه الإشكالية أسماه: (المفارقة القرآنية، دراسة في بنية الدلالة)، وثمّن هذا النوع من البحوث مؤكداً: " أن بحثاً في المفارقة اللغوية في القرآن، يعد عملاً تأسيسياً في مجال اهتمامه؛ لأنه بحث في أرفع ما عرفه اللسان العربي من تعبير، وأعلى ما أدركه من طاقات الإبداع والإفصاح؛ من أجل ذلك تظل الجهود المخلصة في درس لغة التنزيل الحكيم درساً أصيلاً – بالرغم من جهود القدماء فائقة القدر – أنبل ما يزدهي به البحث اللغوي العربي المعاصر، وهو الأحق بأن يشدّ إليه النحارير من علماء اللغة والأسلوب المعاصرين رحالهم؛ حتى يظل دائماً على حظّه الأكفَى وقدحه المعلّى! "(1)

3. التعريف بالمؤلف:

الدكتور محمد العبد (عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة) مؤلف هذا الكتاب، صاحب مسيرة علمية حافلة بالعطاء والإنتاج، تخرج في كلية الآداب جامعة عين شمس عام 1975م، وحصل على الدكتوراه عام 1984م، وتدرج في السلك العلمي حتى أصبح أستاذاً للعلوم اللغوية بقسم اللغة العربية بكلية الألسن جامعة عين شمس عام 2001م. وتولى رئاسة قسم اللغة العربية بكلية الألسن (2006 – 2012م)، ورئيس قسم الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد البحوث والدراسات العربية منذ عام 2017م .

من مؤلفاته العلمية: إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي، واللغة والإبداع الأدبي، واللغة المنطوقة واللغة المكتوبة، والعبارة والإشارة: دراسة في نظرية الاتصال، والمفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، ومبادئ تحليل النص، والنص والخطاب والاتصال، وخطاب الجدل، والبحث عن المغزى: تجارب في قراءة النص.(2)

4. منهج المؤلف في دراسة المفارقة القرآنية:

أبان المؤلف عن المنهج الذي خطه لنفسه في دراسة المفارقة القرآنية، بعد أن رأى أن دراسته تلك هي أول دراسة موسعة في العربية، ولم يفته أن يشير إلى دراسة كل من نبيلة إبراهيم وسيزا قاسم عن المفارقة في القص العربي، حيث إنها تدخل إلى المفارقة تنظيراً وتطبيقاً من مدخل لغوي متخصص، ولما كانت دراسة المفارقة القرآنية أول دراسة تحليلية متكاملة لخطاب المفارقة في النص القرآني، فقد سعت إلى الإفادة من علوم لغوية مختلفة. استلزمته مسألة التحليل ذاتها، من حيث الإجراءات التطبيقية والمنطلقات المنهجية جميعاً، ومنها: نظرية تحليل الخطاب، وعلم اللغة النصي، وعلم اللغة الأسلوبي، وفضلاً عن علم اللغة العام بمستوياته التحليلية المختلفة. (3)

ولا عجب في منهجية هذا التناول في النص الشريف، (القرآن الكريم) خاصة إذا كان بغية الدراسة والكشف عن الدلالات التي تبين عن بعض أسرار النصوص المدروسة، إذا يصعب أن ينهض بذلك علم ما من علوم العربية، حيث يكون نظراً ووقوفاً واستنتاجاً منقوصاً وسطحياً، هذا فضلاً عن أن النظر التحليلي المعمق والمتكامل قد يحتاج إلى علوم أخرى تتصل وتتواصل مع علوم اللغة، كما في حال النظر في الخطاب السياسي والدبلوماسي والرياضي ... ويتعاضد الأمر إذا كانت مادة التحليل اللغوي من نصوص العربية الشريفة: القرآن الكريم والحديث الشريف.

لقد جمع المؤلف نماذج للأنواع المختلفة للمفارقة القرآنية، صنفها في المفارقات السبع الآتية: مفارقة النعمة والمفارقة اللّفظية، ومفارقة الحكاية أو الإيهام، والمفارقة البنائية، والإلماع، ومفارقة المفهوم، ومفارقة السلوك الحركي. واقتضى استقصاء النماذج القرآنية للمفارقة التي جعلت مادة للتحليل كما قال المؤلف؛ تفصيل القول فيما تقدمه هذه النماذج من معطيات فونولوجية ونحوية وخطابية، فضلاً عما تعول عليه من سياقات متنوعة لغوية وغير لغوية، كلها تعين في تقديم نظر تحليلي معمق للمفارقة في بنيتها الدلالة. (4)

5. مفارقة النعمة وبنيتها الدلالية، هل يمكنها أن تحلّق بمفردها؟

عرّف المؤلف مفارقة النعمة، حيث أداء المنطوق بنعمة تهكمية، بغرض إظهار التعارض أو التضاد بين ظاهر المنطوق وباطنه؛ بحيث تقتلع هذه النعمة التهكمية محتوى الظاهر لمصلحة الباطن، حيث تتميز مفارقة النعمة بنعمة عالية سامية لإظهار التهكم على المستويين اللفظي والتركيب. وقد وقف المؤلف عند قوله تعالى من سورة الدخان: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49)﴾ وعرض للسياق المحيط بالآيات الكريمة، فضلاً عن موقعها في سلسلة آيات

السورة حيث تقع في علاقة تضاد دلالي معها، فعلى مستوى المجموعة النغمية الأولى التي تبدأ وتنتهي بالجملة النحوية (ذُقْ) حيث درجة الصوت من المستوى الثالث العالي التي تُعدُّ أنسب المستويات لإظهار النغمة التهكمية العالية التي تقتضيها هذه المفارقة، فضلا عن كونها منبورة نبرةً أوليًا ما يؤدي إلى علو النغمة. (5)

أما في المجموعة النغمية الثانية حيث الجملة الاسمية المؤكدة ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾، فإن إبراز النغمة التأنيبية التهكمية يتجلى في التشديد والضغط على المقاطع (أَنْ) في أنت، و (زِي) في العزيز، ورغم تأكيد المؤلف أنَّ بنية المفارقة تتحقق من خلال مجيء الفعل (ذُقْ) بعد أفعال الأمر: خذوه، غلوه، صبوا.. بما يحقق لبنية المفارقة نوعًا من التماسك الدلالي النصي، إضافة إلى عناصر السياق ودلالات الألفاظ المعجمية والبلاغية والنحوية. (6) والضغط الواقع على الألفاظ في المجموعة النغمية الثانية وعلاقتها بالألفاظ السابقة على مستوى الربط النحوي، والتماسك الدلالي – فإن يمكن القول إنَّ مفارقة النغمة، لا تعمل (تشتغل) بمفردها كما يبدو من بسط القول الذي أبدع فيه المؤلف عند معالجة هذه الإشكالية، فلماذا إذن يخصص لها عنوانًا ومساحة من المعالجة؟ ولعل من التزيد الربط بين المد بالواو في الفعلين: (فاعتلوه، وصبوا) وبين ثقل وطأة الموقف؛ لكون الواو من أثقل الحركات نطقًا وما يظهر في أثناء نطقها من مدّ الشفتين إلى الأمام، ولنا أن نتساءل: ماذا عن هذه الواو في الأفعال المقابلة، مثل: أكرموا، أحسنوا، ... وغيرها؟

6. المفارقة اللفظية، ومخالفة أفق التوقعات:

في هذا الفصل وقف المؤلف على المفارقة التي يحملها لفظ إثر وقوعه في سياق استوقف المتلقي خاصة المعني بالخطاب، وعلة هذا الاستيقاف ما أشاعه اللفظ من معانٍ في العبارة التي انتظم فيها، خالفت ما ألفه المتلقي العربي من دلالات اتشح بها اللفظ في العرف اللغوي العام الذي تجذر استعماله بما عبر حقب تاريخية رسخ بها عند أهل العربية شفاهةً وكتبًا.

لقد حلل المؤلف عدة مفارقات لفظية حفل بها الخطاب القرآني، منها: بَشِّرْ، نَفْحَةٌ، نُزْلٌ، اليعموم، ... يقول عن المفارقة اللفظية التي أحدثتها لفظة (بَشِّرْ): إنَّ لفظ البشري لا يكون إلا من بحر سار، لكنها في الاستخدام المفارقي الخاص وضعت مع ألفاظ تتناقض أو تتضاد معها في الدلالة، وذلك كالشري بالعذاب في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة/ 3]، وكذا في آيات أخرى.

ويؤكد المؤلف هنا أن اللفظة وقدرتها على حمل المعنى المفارقي، إنما جاءت لخدمة العبارة والمعاني التي صيغت من أجلها، وهي زيادة طاقة العبارة ومقدرتها على التهكم والاستهزاء، إذ إنَّ وضع البشري مع العذاب،

وهو ما يخاف آفق التوقعات، خاصة أولئك المعنيين بالخطاب من الكفار والمكذابين والمستكبرين جعلها بشرى بالعذاب، ومما يزيد من قوة هذه الطاقة التعبيرية ويوسع من قدراتها على التعبير تنكير المبرر به (عذاب) الذي يعظم من فجاعة هذا العذاب، إذ هو عذاب لا يوقف على حقيقته، كما الجنة لا يوقف على كم وكيف النعيم الذي ينتظر سكنيتها أو المبشرين بها، ويزداد المعنى قوة والدلالة اندياحاً عندما جاء الفعل (بشّر) بتضعيف العين.⁽⁷⁾

كما أحسن المؤلف صنعا عندما عرّج على رؤية سلفنا من العلماء لهذا النوع الإعجازي من المفارقة في القرآن الكريم، خاصة عند الراغب الأصفهاني في سفره الفريد: المفردات في غريب القرآن، والزركشي في البرهان، والسيوطي في الإتقان، وأبي هلال العسكري في الفروق، والعلوي في الطراز، والزخشري في أساس البلاغة، بل إنه ليثبت لأحدهم براعته وأسبقته المنهجية في التحليل الذي عرف مؤخرًا عند المعنيين بتحليل الخطاب المحدثين، حين يقول عن الزركشي إنّه يربط استخدام اللفظة في بنية نصية صغرى ببنية نصية كبرى، وهي مجموع المنطوقات وما تحتويه من حركات؛ لملاحظة العلاقة على المستوى الدلالي بين هاتين البنيتين، وكأنّ الزخشري من ناحية أخرى يتحدّث هنا عن معيار السبك الذي تزدهي به الآن نظرية تحليل الخطاب، وهو عبارة عن الوسائل والأدوات التي تنتجها الصبغ السطحية للنص، في هيئة علاقات فردية، تنهض بين الجمل أو الوحدات الجملية الكبرى في النص، وهي في ذات الوقت تظهر سطحي للعلاقات الكامنة التي تربط النص، والتي يتم تشفيرها في هيئة بنية نحوية دلالية طويلة، ويحدث هذا السبك بعدة وسائل متنوعة منها ما يبدو هنا من العلاقات المعجمية للتكرار والمصاحبة، وذلك مع الفعل (بشّر) في سياق البشرى الحقيقية بالجنة والبشرى بالعذاب، وهذه العلاقات مع غيرها من العلاقات الأخرى تعد أدوات لربط البنية النصية السطحية.⁽⁸⁾

7. مفارقة الحكاية أو الإيهام، مع المتلقي من المعنى إلى نقبضه:

استدعى المؤلف هنا الاصطلاح البياني لجعله قرين العنوان الذي اختاره لهذا النوع من المفارقات القرآنية، حيث حكاية زعم المخاطب أو المتحدث عنه بما يوهّم أنه حقيقي ومقرر، في الوقت الذي تزدره وتسخر به، وقد حفل الفصل بأربعة عشر موضعًا لهذا النوع من المفارقة، حظي بعضها ببسطة في القول تحليلًا وتوضيحًا مستأنسًا بمراجع تراثية وأخرى حديثة، عربية وأجنبية، بينما كان من نصيب الأخرى الإيجاز، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء 116-117]، [وجميعها سيقّت لتؤكد في مجملها على الإعجاز اللغوي للخطاب القرآني في توظيف المفارقة.⁽⁹⁾

يعود المؤلف ليؤكد من جديد أنَّ البنية التركيبية لمفارقة الحكاية لم تكن لتعمل بمفردها في إحداث التأثير الذي انتظمت من أجله، وعملت على إبراز جماليات النظم القرآني الفريد، إذ آزرها البنية الصوتية التي عملت على شد السمع وإثارة الانتباه عند جمهرة المتلقين، ففي حديث القرآن عن طعام أهل النار جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينَ﴾ [الحاقة: 36]، وقوله تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: 57] وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [٢٤] إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جزاءً وفاقاً ﴿٢٦﴾ [النبا ٢٤-٢٦]، نرى كيف عملت بنية المفارقة في هذه الآيات الكريمة على السخرية بحال أهل النار من الكفار حين تناولت شيئاً من عذابات هؤلاء الذي يتمثل فيما بينهم من أطعمة، وتبدو بنية المفارقة في أنها ليست بطعام، إذ الغسلين ليس بطعام يطعم ولا شراب يُذاق، فكأنه ممنوع من الطعام لأنه كان لا يحضُّ على طعام المسكين، فلا طعام له اليوم، وإنما جعل (الغسلين) طعاماً من باب السخرية بحاله، والتهكم عليه، وذلك يناسب قلبه النكد الخاوي من الرحمة بالعبيد.⁽¹⁰⁾

يربط المؤلف بين البنية الصوتية للألفاظ وما تكتنزه من دلالات، فيرى في البنية التركيبية للمفارقات (الغسلين، والغساق) أنها تشترك جميعها في تقديم بنية صوتية خاصة، تشده السمع وتسير الانتباه لجمهرة المتلقين، فالأمر هما أمر تهويل، ولا يناسبه إلا مثل تلك الألفاظ ذات الجرس الصوتي الخشن، ولذلك نراها وقد احتوت من الأصوات ما يفاجئ وما يثير في النفس رهبة، كالغسلين بما فيها من صوت الغين الذي يرتبط بإيحاءات على دلالات الكدورة، وبما في وزنها الصرغي من زيادة تحكي خروجاً على مألوف الغسل وزيادة، وفي الغسق أيضاً صوت الغين، والتضعيف، وهذا النوع من الدلالة الإيحائية للألفاظ، مما يمكن ربطه بنوع الحكاية الصوتية الثانوية الذي تنتمي فيه الحكاية إلى مجرد حدث أو نوع مجرد.⁽¹¹⁾

لا يفتأ المؤلف أن ينبش في كتب سلفنا؛ ليقف على دررٍ عظيمة؛ بما يشته لهم من الريادة في كثير من الأفكار التي تزدهي بها النظريات اللغوية والنقدية اليوم، فإذا كان "ريتشاردز" ينبه إلى أن التأثير الذي تولده الكلمة فعلاً، عبارة عن توفيق بين أحد تأثيراتها الممكنة والظروف الخاصة التي توجد فيها، فقد سبق إلى ذلك ابن طباطبا العلوي، حين قال في سفره المعروف (عيار الشعر): وللمعاني ألفاظ تشاكلها، فتحسن فيها وتقبح في غيرها.⁽¹²⁾

غير أنَّ "ابن طباطبا" فصلَّ بعض الشيء في هذه الإشكالية حين قال: "فَهِيَ كَالْمَعْرُضِ لِلْجَارِيَةِ الْحُسْنَاءِ الَّتِي تَزْدَادُ حُسْنًا فِي بَعْضِ الْمَعَارِضِ دُونَ بَعْضٍ، فَكَمْ مِنْ مَعْنَى حَسَنٍ قَدْ شِئِنَ بِمَعْرُضِهِ الَّذِي أُبْرِرَ فِيهِ، وَكَمْ مِنْ مَعْرُضٍ حَسَنٍ قَدْ ابْتُذِلَ عَلَى مَعْنَى قَبِيحٍ أَلْسِنَهُ."⁽¹³⁾ إذ يكتسب اللفظ مزية متى جيء به في موضع

روعي فيه موافقته لسياق الحال الذي انتظم فيه، ولا شك أنَّ المفارقة القرآنية في النظم الشريف إذ راعت هذا الجانب؛ فقد عملت على تنبيه المتلقي وتخليصه ذهنه ليفرغ لتأمل هذا الإعجاز البياني، فضلاً عن إثارة فضوله – وما هو بفضول، بل ولع باستكناه أسرار هذا النظم العجيب – في تقصّي مواطن أخرى تتصل به، أو تتشابه معه.

8. المفارقة البنائية: المتهكّم ... المتهكّم به

هي لون آخر من ألوان المفارقة القرآنية احتفى به المؤلف، وفصل فيه القول تنظيراً وتطبيقاً، ومفاده: أنَّ النص القرآني المحكم في هذه البنية الشريفة يجعل من متكلم ما يُنزل بغيره تهكماً ببنية وصياغة محددة، فيردُّ التهكّم على صاحبه ومنشئه، وإذ ذاك ينقلب هذا المتهكّم إلى متهكّم به. ويكشف المؤلف جوانب من شخصية المتكلم الأول الذي يتمثل في جهله ببنية التهكّم، أو فلنقل أنّها ألصق به هو لا بغيره، وأنَّ المتلقي للنص الشريف المحكم مستمعاً أو قارئاً في زمن القصة وبعدها لا يخفى عليه هذا الأمر إذ هو مفهوم ومدرّك. جاء لتسفيه المتهكّم به الذي أنشأ هذا الخطاب فارتدّ عليه. (14)، وقد مثل المؤلف لهذه المفارقة بقوله تعالى: ﴿قَالُوا يُشْعِبُ أَصْلَوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: 87]، حيث تبدو المفارقة في التّضاد الظاهر بين المنطوق الأخير: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ والمنطوقات السابقة عليه، وحتى يقف المؤلف بالقارئ على هذا الأمر عاد إلى معاجم اللغة التي يتبين منها مفهوم الحلم والرشد، وتدور معانيهما حول الأناة والعقل وحسن التصرف في الأموال؛ ليقرر أنَّ السّياق اللغوي في إطار التأليف، لاسيما علاقة النص بالوحدات النصية المرتبطة به، يفيد أن أهل مدين الذي بعث فيهم سيدنا شعيب، إنما ينكرون عليه ما أمرهم به من الخير والمعروف. (15)

كما عالج المؤلف المفارقات الأخرى من جوانب تحليلية صوتية وصرفية ومعجمية مستفيداً من منجزات الدّرس اللّغوي والعربي، ومن النظريات الغربية الحديثة، رابطاً بين تقدم الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَصْلَوتُكَ تَأْمُرُكَ﴾، يعنى التهكّم والاستهزاء – كما يلاحظ الزركشي، حين يقولون لشعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾، فإنهم بذلك يخرجونه على جهة استحقاقه المدح بهاتين الصفتين، مع كونه أهلاً لهما، ولا يريدون بهاتين الصفتين حقيقة معنييهما وأنه أصاب وجه الأمر، وكأنما أطمعهم حلمه ولين معاملته في الجزاء على السيئة بالأناة؛ في التعريض به تهكماً وتسفيهاً، تمرّداً واستكباراً. وغرضهم – سفهم الله – وصفه بالسفه والجهل!

ومن الدرس الصوتي؛ يرى المؤلف أن تلازماً ثنائياً بين بنية الدلالة في هذه المفارقة وبين النّعمة التي يجب أن تؤدى بها، وهى بالطبع نعمة تهكمية تقتضى – إظهاراً لما تنطوي عليه من تهكّم؛ نبراً أعلى على المقاطع:

إن / في «إنك»، و / أن / في «لأنت» و / - / لي / في «الحليم» و / - / شيد / في «الرشيد». وهذا النبر الأعلى الذي هو أمر لفظي، يعكس من وجهة النظر الفسيولوجية - سلوكاً حركياً عضوياً، من حيث إن المقطع المنبور نبراً أعلى ينطق مصحوباً بشد عضلي في مناطق أخرى مثل

عضلات الفم والقفص الصدري، ولا ريب أن هذه الصورة التي يضعهم فيها النبر الأعلى، تزيد المفارقة سخرية؛ لأنهم صوبوا نقيض ما وصفوه به إلى أنفسهم في الوقت الذي رغبوا فيه رميه بنقيض هذه الصفات!!⁽¹⁶⁾، ويقرر المؤلف أن الدلالة في هذه الآية المباشرة تختلف عن غيرها في أنها تحمل ثلاث مستويات: فإذا كانت الدلالة المباشرة للعبارة، تمثل المستوى الأول من مستويات الدلالة، فإن الدلالة الضمنية التي تبني عليها هذه المفارقة هي المستوى الثاني، وإذا علمنا أن تحكمهم بنبيهم «شعيب» من أجل أنه يأمرهم باستيفاء المكيال، والميزان بالقسط، وبألا يبخسوا الناس أشياءهم، وبألا يعيشوا في الأرض مفسدين، وبأن يتركوا ما يعبد آباؤهم، أدركنا أن للدلالة مستوى ثالثاً؛ يبدو في جعل تحكمهم بشعيب أداة للتهكم بهم هم أنفسهم، وكشفاً عن جهالتهم وعنادهم، وكأن المستوى الثالث هذا، يقصد إلى إثبات صحة المستوى الأول للعبارة، وأنه هو صواب الأمر، وأن نقله إلى نقيضه بالتهكم، هو حقاً الذي يستحق التهكم!

ومن الدرس الدلالي الحديث؛ يشير المؤلف إلى علاقة الوحدات النصية فيما بينها، حيث العلاقة الوثيقة بين جملة المفارقة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾، بما يسبقها من جمل أخرى، تكون منطوق آيات أخرى قبلها، إذ إنه العنصر المكون لعلاقة النص بالوحدات النصية المحيطة به، وهو أحد عناصر السياق النصي في إطار التأليف. ويؤسس هذا الأمر الآن معلماً مهماً في نظرية تحليل الخطاب. وهو ما نجده مثلاً في إشارة فان دايك (Van Dijk) إلى أن معنى الجملة، يعتمد على معنى جمل أخرى في منطوق بعينه. وهذا ما يدعو إلى القول بأن المنطوقات يُعاد بناؤها في حدود وحدة أوسع؛ هي وحدة النص. وهو مصطلح يشير إلى البناء النظري المجرد الذي يكمن وراء ما نسميه بالخطاب. وقد أدى اختيار الكلمتين "الحليم" و "الرشيد" بوجه خاص، إلى ظهور البنية الدلالية التي تقوم عليها هذه المفارقة، في أعلى صورة للترابط بين الوحدات اللغوية الصغرى التي تألفت منها هذه الآية الكريمة، فإذا كانت الآية كلاً دلالياً؛ فالمفارقة فيه جزء استخلصت دواله من ذلك «الكل» استخلاصاً، ولو أديرت اللغة على كلمتين أخريين تحلان هنا محل «الحليم» و «الرشيد» سياقياً ودلالياً، ما كان لذلك أبداً وبأي حال أن يكون.⁽¹⁷⁾

هكذا يمكن الوقوف عند معالجة الظواهر اللغوية في النظم العربي، إذ لا يمكن الفصل بين المستويات التحليلية الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية والبرجماتية، ناهيك عن الاستفادة من معطيات العلوم الإنسانية،

مثل: علم الاجتماع، وعلوم النفس، والتاريخ ... وتشتد الحاجة وتعظم إلى هذا الدرس التكاملي عند تحليل النصوص العربية الشريفة: القرآن الكريم والحديث النبوي. ولا يزال حقل المفارقة في النظم العربي بحاجة إلى دراسات أخرى تضيف إليه وتثري المكتبة العربية خاصة بعد الطفرات الهائلة في علوم اللغة.

9. النتائج والتوصيات

أولاً: النتائج:

توصل البحث إلى النتائج الآتية:

1. لبنية المفارقة حضورها في الدرسين اللغوي والأدبي، إذ استحوذت على اهتمام الباحثين لتثويرها والوقوف على قيمتها في بنية الدلالة. خاصة عند سلفنا من المفسرين الذين وقفوا على كثير من نكاتها، وبيان دورها في بنية الدلالة القرآنية.
2. سعت الدراسة التي قدمها الدكتور محمد العبد إلى الإفادة من عدة علوم منها: نظرية تحليل الخطاب، وعلم اللغة النصي، وعلم اللغة الأسلوبي، وفضلاً عن علم اللغة العام بمستوياته التحليلية المختلفة ناهيك عن علوم النفس والاتصال؛ بما يعين على تقديم نظر تحليلي معمق للمفارقة في بنيتها الدلالية في الخطاب القرآني.
3. جاء مفارقة اللفظ لخدمة العبارة والمعاني التي صيغت من أجلها، وهي زيادة طاقة العبارة ومقدرتها على التهكم والاستهزاء.
4. أكد المؤلف في أكثر من موضع على الريادة لسلفنا، في كثير من الأفكار التي تزدهي بها النظريات اللغوية والنقدية الوافدة من الفكر الغربي.
5. لم تسر المعالجة التي انتهجها المؤلف على منوال واحد، فبعض المفارقات استغرقت معالجتها صفحات طوال، عرضت لنماذج تطبيقية عدة مستأنسة برؤى من القديم والحديث العربي والغربي، مع بعض الاختلافات النسبية، بينما جرت معالجة إحدى المفارقات من خلال نموذج واحد فقط.

ثانياً: التوصيات:

- 1- العناية ببحث قضايا المفارقة في السنة النبوية المطهرة، وإبراز أثرها في البلاغة النبوية، وآثارها في الإبداع الأدبي العربي.
- 2- توجيه الباحثين إلى الوقوف على مزيد من البحوث حول المفارقة والوقوف على تجلياتها في الفنون الأدبية الشعرية والقصصية والمسرحية.

- 3- العناية بالبحث المفارقي المقارن بين الأدب العربي والآداب الأخرى، وإبراز أوجه التأثير والتأثر بينها.
- 4- إقامة المؤتمرات والندوات، وإصدار كتب جماعية تعني بمزيد من إشكاليات المفارقة وبنيتها الدلالية.

10. الهوامش:

- 1- محمد العبد: المفارقة القرآنية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2 (1426هـ - 2006م) ص 12.
- 2 - مجمع اللغة العربية بالقاهرة: <https://2u.pw/xvdWieQZ>
- 3 - المفارقة القرآنية، ص 10.
- 4 - المرجع نفسه، ص 12.
- 5 - المرجع نفسه، ص 43.
- 7- المرجع نفسه، ص 45.
- 6 - المرجع نفسه، ص 46.
- 7 - المرجع نفسه، ص 56.
- 8- المرجع نفسه، ص 58.
- 9 - يُنظر المرجع نفسه، ص 101.
- 10- المرجع نفسه، ص 96.
- 11- المرجع نفسه، ص 97.
- 12- المرجع نفسه، ص 98.
- 13- ابن طباطبا محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا، الحسيني العلوي، أبو الحسن،: عيار الشعر، تحقيق: المحقق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي - القاهرة (د.ت) ص 11.
- 14 . يُنظر: المفارقة، ص 103.
- 15 . المفارقة، ص 105.
- 16 . المفارقة، ص 106.
- 17 . المفارقة، ص 106.

11. قائمة المراجع:

1. ابن طباطبا محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا، الحسيني العلوي، أبو الحسن،: عيار الشعر، تحقيق: المحقق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي - القاهرة (د.ت).
2. محمد العبد: المفارقة القرآنية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط، 2 1426 هـ - 2006م.
3. . مجمع اللغة العربية بالقاهرة: <https://2u.pw/xvdWieQZ>